بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى هذا الكتاب صورة لا سيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر ما فيه من ألوان حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام .

وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حدثًا ضخمًا فى تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع الرأى وحده جحفلا لجباً . فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام .

فإلى الجيل الذى يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحر الشجاع ، هذا المثل العالى للحرية والشجاعة والكفاح .

إن أبصارنا فى أعقاب هذه الحرب يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضى معًا ، لأن الماضى مركز الثقل الذى يحفظ توازننا ، فلا نقبل على المجهول إلا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم . ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا . وإذا كنا إلى اليوم لم نغترف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات ، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحى .

لنقل للمترددين مقالة البحارة فى سفينة بالمحيط الأطلسى للمستغيثين من بحارة سفينة قرب شواطئ البرازيل ، فرغ منها الماء العذب فصاحوا فى طلبه ، وأجابهم بحارة المحيط : « ألقوا داوكم حيث أنتم » فأعاد المستغيثون طلب الماء ، وكان الجواب دائمًا : « ألقوا داوكم حيث أنتم » ، حتى إذا ألقوا الدلاء عادت بالماء عذبًا فراتًا لذة للشاربين ، إذ كانوا قبالة شاطئ نهر الأمازون ، حيث يدفع النهر ماءه العذب فى صميم المحيط وهم لا يشعرون .

لنلق الدلاء حيث نحن ، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز .

وسيرى القارئ فيما بعد آيات من البطولة لا نظائر لها إلا عند الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، أو فتى كسيف الإسلام خالد بن الوليد ، أنقذ الإسلام من ردّة المرتدين فكانت يده فى حروب الردة أندى وأجدى من كل غزوة غزاها .

إذا كان نابليون قد فاخر « بقانون نابليون » أكثر مما فاخر بمواقعه الستين التى أذهل بها عبقرية الحرب ، وكان كل حظ القانون منه أنه صدر فى عهده ، فكيف بأبى حنيفة وهو أكبر مستنبط للقوانين فى الإسلام ، والإمام الأعظم للأئمة وللمشترعين . فى كل نبضة من نبضات قلبه هداية . بالعلم وبالقدوة ، إلى شجاعة نفس ، وكفاح متصل ، جلت للناس عمله فى بناية الحضارة الإسلامية وحياطتها بما أشاعه فى كيان الفقه من عناصر الخلود ، وكشفت لهم الفوارق بين العمل الموقوت لأبطال السياسة والحرب ، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأى ، فتجلى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال ويصيبون من الخير فى الحياة الدنيا إذا ازّينت لهم بمصباح الفقيه .

ولما تعارض الفكر والسلطان . أو الفقيه والخليفة ، كانت كلمة الفكر هى العليا .

ألا إن لنا فى الإمام الأعظم قدوة حسنة ، وتأسيًا فى التضحيات ، ونحن فى مفترق الطرق . فلنقتد بهداه . ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة . ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التى أوشكت أن تعلن إفلاسها فى الحربين الأخيرتين لخلوها من عنصر الروح .

لنتمثل بأبطال حضارتنا ، ونستمسك بأسباب نهضتنا .

لقد اعتز الإسلام بأسبابه ، عندما استمسك أبناؤه بآدابه ، فلما ضيعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات فارق سلطانهم أوجه .

وبحسب القارئ هذا المثل للرجل العظيم الذى أجرينا ذكره على الصفحات التالية .